سـورة سبأ

هى مكية إلا الآية السادسة منها فمدنية ، وعدد آيها أربع وخمسون نزلت بعد لقمان .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إن الصفات التى أجريت على الله فى مفتتحها تشاكل الصفات التى نسبت إليه فى مختتم السورة السالفة .

(٢) إنه فى السورة السابقة قد ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم إنكارها صريحا وطعنهم، على من يقول بالبعث، وقال هنا ما لم يقله هناك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) .

شرح المفردات

الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله ، والحكيم : الذى أحكم أمر الدارين ودبره على حسب ماتقتضيه الحكمة، والخبير : هو الذى يعلم بواطن الأمور وخوافيها، يلج فى الأرض : أى يدخل فيها ، ويعرج : أى يصعد .

الإيضاح

(الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) أى الحمد الكامل للمعبود المالك لجميع ما فى السموات وما فى الأرض دون كل ما يعبدونه ودون كل شىء سواه إذ لا مالك لشىء من ذلك غيره .

والخلاصة — إن له عز وجل جميع ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة .

ولما بين اختصاصه بالحمد فى الدنيا أعقبه ببيان أن له وحده الحمد فى الآخرة فقال:

(وله الحمد فى الآخرة) أى وله الحمد فى الآخرة خالصا دون سواه على ما أنعم به فيها كما حكى عن أهلها من قولهم: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » وقولهم : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ » .

(وهو الحكيم الخبير) أى وهو المدبر لشئون خلقه على ما تقتضيه الحكمة، الخبير ببواطن الأمور ومكنوناتها .

ثم فصل بعض ما يحيط به علمه من الأمور التى نيطت بها مصالح عباده الدنيوية والأخروية فقال :

(يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) أى يعلم ما يدخل فى الأرض كالغيث ينفذ فى موضع وينبع فى آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات ، وما يخرج منها كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون والمعادن التى مضى عليها آلاف السنين ، ومخلفات الأمم ومصنوعاتهم كمخلفات المصريين القدماء ونقوش آشور وبابل وعجائب أهل سبأ وصناعاتهم مما استخرجه علماء العاديات من الأوربيين فى القرن الماضى والعصر الحاضر ، ولا يزالون كل يوم يكتشفون جديدا يدل على أن الشرق كان ذا مدنية وحضارة لايدانيها أعظم ما يوجد فى الغرب الآن فى أرقى ممالكه .

(وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والأرزاق والمطر والصواعق .

(وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والدخان والطائرات والمطاود الجوية .

(وهو الرحيم الغفور) أى وهو مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ، رحيم بعباده فلا يعاجل بالعقوبة ، غفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦).

شرح المفردات

لا يعزب عنه : أى لا يفوته علمه ، مقدار ذرة : أى مقدار أصغر نملة ، والكتاب المبين : اللوح المحفوظ ، رزق كريم : أى حسن لا تعب فيه ولا منّ عليه ، معاجزين : أى مسابقين يظنون أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، رجز : أى عذاب شديد ، العزيز أى الذى يَغْلِبُ ولا يُغْلَب ، الحميد : أى المحمود فى جميع شئونه ، وصراطه : هو التوحيد والتقوى .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن له الحمد فى الآخرة على ما أسدى إلى عباده من النعم ، أردف ذلك ببيان أن كثيرا منهم ينكرها أشد الإنكار ويستهزئ بمن يثبتها ويعتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظنا منهم أن هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر أن مجيئها ضربة لازب ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا ببيان أن الناس فريقان : مؤمن

بآيات ربه يرى أنها الحق وأنها تهدى إلى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى فى إبطالها ، ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسى به نفسه من قبيح الخلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) أى وقال الذين ستروا ما أرشدتهم إليه عقولهم من البراهين الدالة على قيام الساعة : إنه لارجعة بعد هذه الدنيا ولا بعث ولا حساب ، إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما نحن بمبعوثين .

وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم مؤكدا لهم بطلان ما يدعون .

(قل بلى وربى لتأتينكم) أى قل لهم إنها وربى لآتية لاريب فيها .

وهذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد حين أنكره من أنكره من أهل الشرك والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » وثانيتها فى سورة التغابن « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا. قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » وثالثتها ما هنا .

ثم وصف المولى نفسه بكامل العلم وعظيم الإحاطة بالموجودات مما يؤكد صحة البعث فقال :

(عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) أى إن وقت مجيئها لايعلمه سوى علام الغيوب الذى لايغيب عن علمه شىء فى السموات ولا فى الأرض من ذرة فما دونها ولا مافوقها ، أين كانت وأين ذهبت ، فكل ذلك محفوظ فى كتاب مبين ، فالعظام و إن تلاشت ، واللحوم و إن تفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، فيعيدها كما بدأها أول مرة وهو بكل شىء عليم .

ثم بين الحكمة فى إعادة الأجسام وقيام الساعة بقوله :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى أثبت ذلك فى الكتاب المبين ليثيب الذين آمنوا بالله وعملوا بما أمرهم الله ورسوله به وانتهوا عما نهاهم عنه ، وأولئك لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم ، وعيش هنىء فى الجنة لاتعب فيه ولا منّ عليه .

والخلاصة — إن الحكمة تقتضى وجودها وليس هناك مانع منها ، فالعلم المحيط بالغيب موجود ، فقد وجد المقتضى لوجودها وارتفع المانع من إثباتها .

(والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) أى وليجزى الذين سعوا فى إبطال أدلتنا وحججنا عنادامنهم وكفرا، وظنوا أنهم يسبقوننا بأنفسهم فلا نقدر عليهم بشديد العذاب ، لما اجترحوا من السيئات ودسوا به أنفسهم من قبيح الأعمال .

و إجمال ذلك — إن الساعة آتية لامحالة ، لينعم السعداء من المؤمنين ، و يعذب الأشقياء من الكافرين .

ونحو الآية قوله : « أَمْ نَجْعَلُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » وقوله : « لَايَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

ثم استشهد باعتراف أولى العلم ممن آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما بصحة ما أنزل إليك ليردّ به على أولئك الجهلة الساعين فى الآيات الذين أنكروا الساعة فقال :

(ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) أى وقال الجهلة المنكرون للبعث والحشر والحساب — إنه لارجعة بعد هذه الدنيا ؛ وقال العالمون من أهل الكتاب ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يأتى من بعدهم من أمته : إن الذى أنزل إليك من ربك مثبتا لقيام الساعة

ومجازاة كل عامل بما عمل من خير أو شر - هو الحق الذى لاشك فيه وأنه هو الذى يرشد من اتبعه وعمل به إلى سبيل الله الذى لايغالب ولا يمانع وهو القاهر لكل شىء والغالب له ، وهو المحمود على جميع أقواله وأفعاله وما أنزله من شرع ودين .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) .

شرح المفردات

تمزيق الشيء : تقطيع أوصاله وجعله قطعا قطعا ، يقال ثوب مزيق وممزوق ومتمزق وممزق ، ومنه قوله :

إذا كنت مأكولا فكن خيرآ كل ... وإلا فأدركنى ولمـا أمزق

والافتراء : اختلاق الكذب ، والجنة : الجنون وزوال العقل ، كسفا : قطعا واحدها كسفة ، منيب : أى راجع إلى ربه مطيع له .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا وأكده كل التأكيد ، ثم ذكر ما يكون إذ ذاك من جزاء المؤمن على ما عمل من صالح الأعمال وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات لقاء ما دسّى به نفسه من

اجتراح المعاصى وفاسد المعتقدات ـ أردف ذلك بذكر مقال للكافرين ذكروه تهكما واستهزاء ، ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض ، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد لعلهم يرجعون عن عنادهم و يثوبون إلى رشادهم .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟) أى وقال قريش بعضهم لبعض تعجبا واستهزاء وتهكما و إنكارا : هل سمعتم برجل يقول : إنا إذا تقطعت أوصالنا ، وتفرقت أبداننا ، و بليت عظامنا ، نرجع كرة أخرى أحياء كما كنا ونحاسب على أعمالنا ، ثم نثاب على الإحسان إحسانا ونجزى على اجتراح الآثام آلاما ، ونارا تلظى تشوى الوجوه والأجسام .

وخلاصة ذلك — إنه يقول إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتا وعظاما وقطعتكم السباع والطير ستحيون وتبعثون ثم تحاسبون على مافرط منكم من صالح العمل وسيئه؛ ثم قسموا حاله فى الإخبار بهذا فى نظرهم قسمين فقالوا :

(أفترى على الله كذبا أم به جنة؟) أى إن أمره فى هذا دائر بين أمرين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه أوحى إليه ذلك ، أو أنه لُبِّس عليه كما يلبّس على المعتوه والمجنون .

و إجمال ذلك — إنه إما أن يكون مفتريا على الله و إما أن يكون مجنونا .

فرد الله عليهم مقالهم وأثبت لهم ما هو أشد وأنكى فقال :

(بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) أى ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ، بل إن محمدا هو البر الرشيد الذى جاء بالحق و إنهم هم الكذبة الجهلة الأغبياء الذين بلغوا الغاية فى اختلال العقل وأوغلوا فى الضلال ، و بعدوا عن الإدراك والفهم ، وليس هذا إلا الجنون بعينه ، وسيؤدى ذلك بهم إلى

العذاب ، إذ هم قد أنكروا حكمة الله فى خلق العالم وكذبوه فى وعده ووعيده ، وتعرضوا لسخطه .

ثم ذكّرهم بما يعاينون مما يدل على كمال قدرته ، وفيه تنبيه لهم إلى ما يحتمل أن يقع لهم من القوارع التى تهلكهم ، وتهديد على ما اجترحوا من السيئات فقال :

(أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد الجاحدون للبعث بعد الممات ، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضى وسمائى محيطة بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فيرتدعوا عن جهلهم ، ويزدجروا عن تكذيبهم حذر أن نأمر الأرض فتخسف بهم أو نأمر السماء فتسقط عليهم كسفا ، فإنا إن نشأ أن نفعل ذلك بهم فعلنا لكنا نؤخره لحلمنا وعفونا .

وإجمال ذلك — إنه تعالى ذكرهم بأظهر شىء لديهم يعاينونه حيثما وجدوا ، ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا ، وفيه الدليل على قدرته على البعث والإحياء ، فإن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام لاتعجزه إعادة الأجسام ، فهى إذا قيست بها كانت كأنها لا شىء كما قال : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

وفى هذا ما لا يخفى من التنبيه إلى مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد .

ثم ذكر ما هو كالعلة فى الحث على الاستدلال بذلك ، ليزيح إنكارهم بالبعث فقال :

(إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) أى إن فى النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن منيب إلى ربه على كمال قدرته على بعث الأجساد ووقوع المعاد ، لأن من قدر على خلق هذه السموات على ارتفاعها واتساعها ، وعلى هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها — قادر على إعادة الأجسام ، ونشر

الرميم من العظام ، كما قال « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

فضلا : أى نعمة وإحسانا ، أوّبى معه : أى رجّعى معه التسبيح وردّديه ، وألنا له الحديد : أى جعلناه فى يده كالشمع والعجين يصرّفه كما يشاء من غير نار ولا طَرْق ، وسابغات من السبوغ وهو التمام والكمال : أى دروعا كاملات ، قدّر أى اقتصد ، والسرد : النسج : أى اجعل النسج على قدر الحاجة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى خلق السموات والأرض آية لكل من أناب إلى الله ورجع إليه ـ أردف ذلك بذكر بعض من أنابوا إلى ربهم فأنعم عليهم بما آتاهم من الفضل المبين ، ومن جملتهم داود عليه السلام فقد جمع الله له النبوة والملك والجنود ذوى العدد والعُدد ومنحه الصوت الرخيم ، فكان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات ، وتقف له الطيور السارحات ، وعلمه سرد الدروع لتكون عُدّة للقاتلين وردْءا للمجاهدين .

الإيضاح

(ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير) أى ولقد أعطينا داود منا نعما ومننا فقلنا للجبال وللطير رجّعى معه التسبيح وردّديه إذا سبح ، وذلك بأن تحمله عليه إذا تأمل عجائبها فهى له مذكرات كما يذكر المسبّح مسبحا آخر .

(وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) أى وجعلنا الحديد فى يده ليّنا يسهل تصويره وتصريفه كما يشاء ، فيعمل منه الدروع وآلات الحرب على أتم النظم وأحكم الأوضاع ، فيجعل حلقاتها على قدر الحاجة فلا هى بالضيقة فتضعف ولاتؤدى وظيفتها لدى الكر والفر والشد والجذب ، ولا هى بالواسعة التى ربما ينال صاحبها من خلالها الأذى ، وهنا تعليم من الله له فى إجادة نسج الدروع .

قال قتادة : إن داود أول من عملها حلقا وكانت قبل ذلك صفائح فكانت ثقالا .

(واعملوا صالحا) أى واعمل ياداود أنت وآلك بطاعة الله فأجازيكم كفاء ما عملتم .

ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إنى بما تعملون بصير) أى إنى مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لايخفى على شىء منها .

وفى هذا ما لايخفى من التنبيه والإغراء بإصلاح العمل والإخلاص فيه .

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ

وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) .

شرح المفردات

غدوّها شهر : أى جريانها بالغداة مسيرة شهر ، ورواحها شهر : أى وجريانها بالعشى مسيرة شهر ، وأسلنا : أى أذبنا ، والقطر : النحاس المذاب ، ومن يزغ منهم عن أمرنا : أى ومن يعدل عن طاعة سليمان ، عذاب السعير : أى العذاب الشديد فى الدنيا ، والمحاريب واحدها محراب : وهو كل موضع مرتفع قال الشاعر :

وماذا عليه أنْ ذكرتُ أوانسا كغِزْلان رمل فى محاريبِ أقيالِ

والتماثيل : الصور ، والجفان واحدها جفنة : وهى القصعة ، والجوابى واحدها جابية : وهى الحوض الكبير ، وقدور : واحدها قدر ، وراسيات : أى ثابتات على أثافيها لاتتحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمها ، الشكور : الباذل وسعه فى الشكر قد شغل قلبه ولسانه وجوارحه به اعترافا واعتقادا وعملا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مامنّ به على داود من النبوة والملك ـ أردف ذلك بذكر ماتفضل به على ابنه سليمان من تسخير الريح ، فتجرى من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر ، وإذابة النحاس على نحو ما كان لداود من إلانة الحديد وتسخير الجن عَمَلَة بين يديه يعملون له شتى المصنوعات من قصور شامخات وصور من نحاس وجفان كبيرة كالأحواض وقدور لاتتحرك لعظمها .

إذ كل منهما أناب إلى ربه وجال بفكره فى ملكوت السموات والأرض وكان من المؤمنين المخبتين الذين هم على ربهم يتوكلون .

الإيضاح

عدّد سبحانه ما أنعم به على سليمان عليه السلام وهو أمور :

(١) (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أى وسخرنا لسليمان الريح تجرى بالغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، وتجرى بالرواح من منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر .

قال قتادة تفسيرا للآية : كانت الريح تقطع به عليه السلام من الغدوّ إلى الزوال مسيرة شهر ومن الزوال إلى الغروب مسيرة شهر. وقال الحسن البصرى: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصْطَخْر يتغدى بها، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابُل، و بين دمشق و إصطخر شهر كامل للمسرع ، و بين إصطخر وكابل شهر كذلك .

(٢) (وأسلنا له عين القطر) أى وأذبنا له النحاس كما ألنا الحديد لداود ، فكان يعمل منه أعماله وهو بارد دون حاجة إلى نار ، وقد سال من معدنه فنبع نبوع الماء من الينبوع فلذلك سماه عينا .

(٣) (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أى وسخرنا له من الجن من يبنى له البنايات وغيرها بقدرة ربه وتسخيره ، ومن يخرج منهم عن طاعته يذقه عذابا أليما فى الدنيا .

و إنا لنوقن بصدق ما جاء به القرآن من استخدام سليمان للجن ولا نعلم كيف كان يستخدمهم فى أعماله ، ولكن نشاهد آثار استخدامه لهم من المبانى الشاهقة والقصور العظيمة والتماثيل البديعة التى فصلها سبحانه بقوله :

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) أى يعملون له مايشاء من القصور الشامخة والصور المختلفة من النحاس والزجاج والرخام ونحوها ، والجفان الكبيرة التى تكفى لعشرات الناس ، قال الأعشى يمدح آل جَفْنَةَ من الغساسنة بالشام :

نفى الذمّ عن آل المحلّق جفنةٌ كجابية الشيخ العراقىّ تفهقُ

القدور الثوابت فى أماكنها التى لاتتحرك ولا تتحول لـكبرها وعظمها .

(اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا لهم : اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكرا له على نعمه التى أنعمها عليكم فى الدين والدنيا . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود ، فقلنا ماهن ؟ فقال العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفقر والغنى ، وخشية الله فى السرّ والعلانية » أخرجه الترمذى .

والشكر كما يكون بالفعل يكون بالقول و يكون بالنية كما قال :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ثم ذكر السبب فى طلب الشكر منهم فقال :

(وقليل من عبادى الشكور) أى وقليل من عبادى من يطيعنى شكرا لنعمتى ، فيصْرِف ما أنعمت به عليه فيما يرضينى ، وقد قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر .

ونحو الآية قوله : (إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ) وعن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الله حتى تَفَطّرَ قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال أفلا أكون عبدا شكورا » خرجه مسلم فى صحيحه .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) .

شرح المفردات

قضينا عليه : أى حكمنا عليه ، دابة الأرض : هى الأرضة (بفتحات) التى تأكل الخشب ونحوها ، والمنسأة : العصا ؛ من نسأت البعير إذا طردته ، قال الشاعر:

ضربْنا بمِنْسأة وجهَه فصار بذاك مهينا ذليلا

لأنها يطرد بها ، وخر : سقط ، وما لبثوا : أى ما أقاموا ، فى العذاب المهين : أى فى الأعمال الشاقة التى كلفوا بها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه عظمة سليمان وتسخيره الريح والجن ـ أردف ذلك ببيان أنه لم ينج أحد من الموت بل قضى عليه به ، تنبيها للخلق إلى أن الموت لابد منه ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة .

الإيضاح

إنا لما قضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات لم يدل الجن على موته إلا الأرضة التى وقعت فى عصاه من داخلها ؛ إذ بينما هو متكئ عليها وقد وافاه القضاء المحتوم انكسرت فسقط على الأرض واستبان للجن أنهم لايعلمون الغيب كما كانوا يزعمون ، ولو علموه لما أقاموا فى الأعمال الشاقة التى كانوا يعملونها ظانين أنه حى .

والكتاب الكريم لم يحدد المدة التى قضاها سليمان وهو متوكئ على عصاه حتى علم الجن بموته ، وقد روى القصاصون أنها كانت سنة ، ومثل هذا لاينبغى الركون إليه ، فليس من الجائز أن خدم سليمان لايتنبهون إلى القيام بواجباته المعيشية من مأكل ومشرب وملبس ونحوها يوما كاملا دون أن يحادثوه فى ذلك و يطلبوا إليه القيام بخدمته ، فالمعقول أن الأرضة بدأت العصا وسليمان لم يتنبه لذلك ، و بينما

هو متوكئ عليها حانت منيته ، وكانت الأرضة قد فعلت فعلها فى العصا فانكسرت خرّ على الأرض فعلمت الجن كذبها ، إذ كانت تدعى أنها تعلم الغيب ، إذ لو علمته مالبثت ترهق نفسها فى شاقّ الأعمال التى كلفت بها .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) .

شرح المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قَحْطان ؛ والمراد به هنا القبيلة ، والمسكن: موضع السكنى وهو مأرب (كمنزل) من بلاد اليمن بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب ، جنتان : أى بستانان ، فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم ، والعرم : واحدها عرمة ؛ وهى الحجارة المركومة كخزان أسوان فى وادى النيل لحجز المياه جنوبى النيل ، وكانت له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، والمطر يجتمع أمام ذلك السد ، فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل ، والأكل : الثمر ، والخمط : كل شجرة مرة ذات شوك ، والأثل : الطرفاء؛ وهو المعروف فى مصر (بالأتل) والسدر : شجر النبق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمه المنيبين إليه ـ أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه ، المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب ، موعظة لقريش وتحذيرا لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

الإيضاح

(لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) أى لقد كان أهل هـذا الحى من ملوك اليمن فى نعمة عظيمة وسعة فى الرزق ، وكانت لهم حدائق غناء وبساتين فيحاء عن يمين الوادى وشماله ، وقد أرسـل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق ربهم ويشكروه بتوحيده وعبادته كفاء ما أنعم عليهم بهذه المنن ، وأحسن إليهم بتلك النعم ، فكانوا كذلك إلى حين ، ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل عليهم فتفرقوا فى البلاد شذَرَ مَذَرَ ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سـدر قليل) أى فأعرضوا عن طاعة ربهم وصدوا عن اتباع ما دعتهم إليه الرسل فأرسل الله عليهم سيلا كثيرا ملأ الوادى وكسر السدّ وخربه وذهب بالجنان والبساتين وأهلك الحرث والنسل ، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت فى البلاد ، وبدلوا من تلك الجنان والبساتين التى سبق وصفها بساتين ليس فيها إلا بعض أشجار لايؤبه بها كالخمط والأثل وقليل من النبق .

ثم بين سبب ذلك العقاب بقوله :

(ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى وجازيناهم ذلك الجزاء الفظيع من جَرَاء كفرهم بربهم وجحودهم بنعمه ، وتكذيبهم بالحق ، وعدولهم

عنه إلى الباطل ، وما نجازى مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا عظيم الكفران للنعم ، الجحود للفضل والمنن .

سد مأرب — سد العرم

وصف هـذا السد مؤرخو العرب فى عصور مختلفة . وأصدق من أجاد وصفه الهمدانى فى كتابه (وصف جزيرة العرب) قال : فى الجنوب الغربى من مأرب سلسلة جبال هى شعاب من جبل السراة الشهير ، تمتد مئات الأميال نحو الشرق الشمالى ، و بين هذه الجبال أودية تصب فى واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقى وهو أعظم أودية الشرق ، وشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهى أخيرا إلى وادى آذنة ، وهو يعلو سطح البحر بنحو ١١٠٠ متر ، وتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالى حتى تنتهى إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات ، هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلن ، أحدهما بلن الأيمن وثانيهما بلن الأيسر والمسافة بينهما ستمائة ذراع يجرف السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى فى وادى أذنة .

وقد اختار السبئيون المضيق بين جبلى بلن و بنوا فى عرضه سورا عظيما عرف بسد مأرب أو بسد العرم ، لأنه لا أنهار عندهم ، و إنما يستقى أهلها من السيول التى تتجمع من المطر ، وقد كان يذهب أكثرها فى الرمال ، فإذا انقضى فصل المطر ظمئوا وجفت أغراسهم ، وربما فاض المطر فسطا على المدن والقرى فنالهم منه أذى كثير .

و بين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض تبلغ مساحة ما يحيط به من الأرض من سفوح وجبال نحو ٣٠٠٠ ميل مربع كانت صحراء جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدبير المياه بالسـد غياضا و بساتين على سفحى الجبلين وهى المعبر عنها بالجنتين الجنة اليمنى والجنة اليسرى اهـ بتصرف .

وقد ظل الباحثون والمنقبون فى العصر الحديث فى شك من أمر هذا السد حتى

تمكن المستعرب الفرنسى أرنو من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له مصورا نشر فى المجلة الفرنسية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعده هاليفى وغلازر ووافقاه فيما قال وصادقاه فيما وصف وهو يطابق من وجوه كثيرة ما قاله الهمدانى فى كتابه ثم عثروا فيما بعد على نقوش كتابية فى خرائب السد وغيرها تحققوا بها صدق خبره .

قال الأصفهانى : إن السد تهدم قبل الإسلام بنحو أربعمائة سنة ، وقال ياقوت : إنه هدم فى نحو القرن السادس للميلاد ، وقال ابن خلدون : إنه تهدم فى القرن الخامس للميلاد .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) .

شرح المفردات

القرى التى بارك فيها : هى قرى الشام ، قرى ظاهرة : أى مرتفعة على الآكام وهى أصح القرى ، وقدرنا فيها السير : أى كانت القرى على مقادير للراحل ، فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ، ومن سار من بعد الظهر وصل إلى أخرى حين الغروب ، فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ولا يخاف من عدو ولا سبع ، آمنين : أى من كل ما تكرهون ، وظلموا أنفسهم لأنهم بطروا النعمة ، والأحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب ، ومزقناهم كل ممزق : أى وفرقناهم كل تفريق ، الصبّار : كثير الصبر

عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات ، والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه ما أُوتُوا من النعم فى مسا كنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار ـ قص علينا ما أعطوه من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ، ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

الإيضاح

(وجعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة) أى وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التى باركنا فيها بالتوسعة على أهلها قرى متواصلة يظهر بعضها لبعض ، لأنها مبنية على آكام عالية .

(وقدرنا فيها السير) أى وجعلنا بين بعضها و بعض مقادير متناسبة بحيث يقيل الغادى فى قرية ، و يبيت الرائح فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام وهو لايحمل معه زادا ولا ماء .

(سيروا فيها ليالى وأياما آمنين) أى وقلنا لهم سيروا فى هـذه القرى التى بين قراكم وقرى الشام التى باركنا فيها ليالى وأياما وأنتم آمنون لاتخشون جوعا ولا عطشا ولا عدوّا يبطش بكم ، بل تغدون فتقيلون ، وتروحون فتبيتون فى قرية ذات جنان ونهر .

وخلاصة هذا — إنهم كانوا فى نعمة وغبطة وعيش هنئ رغد فى بلاد مرضية وأماكن آمنة وقرى متواصلة ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ؛ فالمسافر لايحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، فهو يقيل فى قرية و يبيت فى أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم .

ثم ذكر أنهم بطروا وملّوا تلك النعم وآثروا الذى هو أدنى على الذى هو خير كما فعل بنو إسرائيل فطلبوا أن يُفصل بين القرى بمفاوز وقفار، ليُظهر القادرون منهم الأزواد والرواحل تكبرا وفخرا على العاجزين كما حكى سبحانه عنهم بقوله :

(فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) فاجعل بيننا و بين الشام فلوات ومفاوز ، لنركب فيها الرواحل ، ونتزود معنا فيها الأزواد ، فأجاب الله طلبهم وعاقبهم على بطرهم بالنعمة كما قال :

(وظلموا أنفسهم) إذ قد عرّضوها للسخط والعـذاب بغمط النعمة وعدم الوفاء بشكرها .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) أى فجعلناهم أحاديث للناس يتسامرون بها و يعتبرون بأمرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنىّ وصاروا مضرب الأمثال فقيل للقوم يتفرقون ؟ تفرقوا أيدى سبا ، فنزل آل جفنة ابن عمرو الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت أزْد السَّراة السَّراة ، ونزلت أزد عمان عُماناً ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه .

(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فى ذلك الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب بعد النعمة والعافية عقوبة لهم على ما اجترحوه من الآثام ـ لعبرة لكل عبد صبار على المصايب ، شكور على النعم .

روى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عجبت من قضاء الله تعالى المؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء حتى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » وكان مُطَرِّف بن الشِّخِّير يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابْتُلِى صبر .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) .

شرح المفردات

صدق عليهم إبليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقا ، لانهما كهم فى الشهوات واستفراغ الجهد فى اللذات ، سلطان : أى تسلط واستغواء بالوسوسة ، حفيظ : أى وكيل قائم على شئون خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته قصص سبأ ، وما كان من أمرهم فى اتباع الهوى والشيطان ـ أردف ذلك بالإخبار بأنهم صدقوا ظنّ إبليس فيهم وفى أمثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال ، إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته ، وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لاسلطان للشيطان عليهم كما قال سبحانه : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

الإيضاح

(ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) أى ولقد ظن إبليس بهؤلاء الذين بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط عقوبة منا لهم ـ ظنا غير يقين أنهم يتبعونه ويطيعونه فى معصية الله ، وحين أغواهم وأطاعوه وعصوا ربهم تحقق صدق ظنه فيهم ، إلا فريقا من المؤمنين ثبتوا على طاعة الله ومعصية إبليس .

ثم ذكر أنه ابتلاهم ليظهر حال المؤمنين من حال الشاكين فى الآخرة فقال :

(وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) أى وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها ، ولكنا أردنا ابتلاءهم واختبارهم ليظهر حال من يؤمن بالآخرة ويصدّق بالثواب والعقاب ممن هو منها فى شك ، فلا يوقن بمعاد ، ولا يصدق بثواب ولا عقاب .

قال الحسن البصرى : والله ماضربهم بعصا، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانىّ دعاهم إليها فأجابوه .

وخلاصة ذلك : لاسلطان لإبليس على قلوب الناس ، ولكنى أسلطه عليهم كما أسلط الذباب على العيون القذرة ، والأوبئة على البلاد التى لم يراع أهلها شروط النظافة فى مساكنهم وملابسهم وما كلهم ، ولا أفعل ذلك إلا لحكمة ، فإذا حل الوباء بأرض مات من لاقدرة له على مقاومة جراثيم الأمراض و بقى من هو قادر على المقاومة ولديه قوة المناعة ، وهكذا وسوسة الشيطان يفرق الله بها بين الثابت العقيدة والمتزلزلها ، ومن انقاد لها فلا يلومنّ إلا نفسه وهو المذنب وحده ، وهكذا جميع حوادث الدنيا من مصايب وآلام يثبت لها ذوو العزيمة الصادقة ، ولا يضطرب حين حلولها إلا الضعيف الذى ليس له جلد ولا صبر .

(وربك على كل شىء حفيظ) أى وربك أيها الرسول حفيظ على أعمال هؤلاء الكفار وغيرهم ، لايعزب عن علمه شىء ، وهو يجازيهم جميعا يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من خير أو شر ، فمن أخبت لله وأناب إليه لاقى من الثواب ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن دسّى نفسه الأمارة بالسوء وانهمك فى شهواته لاقى من سوء الجزاء كفاء أعماله نارا تلظى لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ

ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا ؟ قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) .

شرح المفردات

ادعوا : أى نادوا ، زعمتم : أى زعمتموهم آلهة ، من شرك : أى شركة ، والظهير : المعين ، والتفزيع : إزالة الفزع ؛ وهو انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزت قدرته ما آتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التى لاحصر لها ، وما فعله بسبأ حين بطروا النعمة وكذبوا الرسل ـ أعقب ذلك بأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم : ادعوا آلهتكم الذين زعمتموهم شركاء لله ، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام ، فإن لم يستطيعوا ذلك فاعلموا أنهم مبطلون .

ثم ذكر أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعابد يخشى بطشه وسطوته ، وهؤلاء ليس لهم شىء من ذلك ، إذ لا تصرف لهم فى شىء فى السموات والأرض لا استقلالا ولا شركة ، ولا هم معينون للخالق فيهما ، ولا تنفع شفاعتهم لديه ، فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذى علمتم من أمرهم .

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك موبخا لهم ومبينا لهم سوء ما يصنعون : ادعوا هؤلاء الأصنام فى مهامّ أموركم ليدفعوا الضر عنكم أو يجلبوا النفع لكم ، لعلهم يستجيبون لكم إن كان ذلك فى مكنتهم وبيدهم مقاليد أموركم .

ثم أبان لهم عظيم خطئهم وكبير جرمهم فقال :

(لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) أى هؤلاء الآلهة لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض من خير أو شر ، فكيف يكونون آلهة يرجى معهم نفع أو يخشى منهم ضر .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » .

(وما لهم فيهما من شرك) أى ولا هم يملكون مثقال ذرة فيهما على سبيل الشركة ، والمراد أنهم لايملكون شيئا لاعلى سبيل الاستقلال ولا على سبيل الشركة للخالق لها .

(وما له منهم من ظهير) أى وما لله من الآلهة التى يدعون من دونه ــ معين على خلق شىء من ذلك ، ولا على حفظه .

(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أى ولا تنفعهم شفاعتهم عنده تعالى ، إذ لاشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع ، وهو لايأذن أحدا أن يشفع لهؤلاء الكافرين كما قال تعالى : « لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » . والشفاعة لمثل هؤلاء لا تكون أبدا .

ثم ذكر ما يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة فقال :

(حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) أى يقف الناس منتظرين الإذن بالشفاعة وجلين حتى إذا أذن للشافعين وأزيل الفزع عن قلوب المنتظرين قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فى الإذن بالشفاعة ؟ قالوا قال ربنا القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى .

والآيات تدل على أن المشفوع لهم هم المؤمنون ، والكافرون بمعزل عن موقف الاستشفاع .

والخلاصة — إن الشفاعة لاتنفع فى حال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين

والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ثم ذكر اعتراف الشفعاء بعظمة خالق الكون وقصور كل ما سواه فقال :

(وهو العلى الكبير) أى وهو جل شأنه المتفرد بالعلو والكبرياء لايشاركه فى ذلك أحد من خلقه ، وليس لأحد منهم أن يتكلم إلا من بعد إذنه .

وفى هذا تواضع منهم بعد أن رفع سبحانه أقدارهم بالإذن لهم بالشفاعة ، وفيه أيضا ثناء على الله كما لايخفى .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلٰى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ، كَلَّا بَلْ هُوَ اللّٰهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

شرح المفردات

أجرمنا : أى وقعنا فى الجُرم، وهوالذنب ، ويفتح : أى يحكم ، والفتاح : الحاكم، أرونى الذين ألحقتم به شركاء : أى أعلمونى بالدليل وجه الشركة ، كلا: كلمة للزجر عن كلام أو فعل صدر من المخاطب .

المعنى الجملى

بعد أن سلب سبحانه عن شركائهم ملك شىء من الأكوان ، وأثبت أن ذلك له وحده ـ أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية ، وأن يخبر بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجماد ـ مبطل والآخر

محق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لاتؤاخَذون بما نعمل ولا نؤاخذ بما تعملون ، وأن يقول لهم : إن ربنا هوالذى يحكم بيننا يوم القيامة وهوالحكيم العليم بجلائل الأمور ودقائقها ، وأن يقول لهم : أعلمونى عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخلقون وهل يرزقون ؟ كلا بل الله هو الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم فى كل ما يفعل .

الإيضاح

(قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بربهم الأوثان والأصنام : من يرزقكم من السموات بإنزال الغيث عليكم، حياة لحروثكم وصلاحا لمعايشكم ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم ـ ومن الأرض بإخراج أقواتكم وأقوات أنعامكم ؟

فإن هم قالوا لاندرى فأجبهم :

(قل الله) هو الذى يرزقكم ، إذ لاجواب عندهم سواه فى قرارة أنفسهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به عنادا مع علمهم بصحته ، ولأنهم لو تفوّهوا به لقيل لهم : فما لكم لاتعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لايقدر على الرزق ؟ كما قال سبحانه تبكيتا لهم : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ؟ » .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم بعد الإلزام الذى ليس بأقل من الاعتراف بأنفسهم.

(وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أى وإن أحد الفريقين منا معشر الذين يوحدون الرازق لمن فى السموات والأرض ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجماد العاجز عن دفع الضر وجلب النفع ـ لعلى الهدى أو فى الضلال البين الذى لاشك فيه .

وهـذا أسلوب من الكلام المنصف تستعمله العرب فى محاوراتها لإرخاء العنان للمخاطب حتى إذا سمعه الموافق أوالمخالف قال لمن خوطب به لقد أنصفك صاحبك.

ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

وفى ذكر هذا بعد ما تقدمه من الحجج الظاهرة على التوحيد، دلالة واضحة على تمييز المهتدى من الضالّ ، والإيماء أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم وقل شوكته بالهوينى .

ثم زاد فى إنصافهم فى المخاصمة ، فأسند الإجرام إلى أنفسهم والعمل للمخاطبين فقال :

(قل لاتسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) أى قل لهؤلاء المشركين : أنتم لاتسألون عما اكتسبنا من الآثام وارتكبنا من الذنوب ، ونحن لانسأل عما تعملون من عمل ـ خيرا كان أو شرا .

ونحو الآية قوله : « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم :

(قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) أى قل لهم : إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهنالك يجزى كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية كما قال : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » .

ثم استفسر عن شبههم بعد إلزامهم الحجة تبكيتا لهم فقال :

(قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أى قل لهم : ما الذى عراكم ودخل فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، و بأى صفة ألحقتموهم به فى استحقاق العبادة ؟

ثم نبه إلى فاحش غلطهم وعظيم خطئهم بقوله :

(كلا، بل هو الله العزيز الحكيم) أى ليس الأمر كما وصفتم، فلا نظير له تعالى ولا ندّ ، بل هو الله الواحد الأحد ذو العزة التى بها قهر كل شىء ، وهو الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياتيه الأولى والآخرة .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد وضرب لذلك الأمثال حتى لم يبق بعدها زيادة لمستزيد ـ شرع يذكر الرسالة و يبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فيحملهم ذلك على مخالفتك ، ثم ذكر سؤال منكرى البعث عن الساعة استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

الإيضاح

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) أى وما أرسلناك إلى قومك خاصة ، بل أرسلناك إلى الخلق جميعا عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم ، مبشرا من أطاعنى بالثواب العظيم ، ومنذرا من عصانى بالعذاب الأليم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » وقوله : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم فيه من الغى والضلال .

ونحو الآية قوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » وقوله : « وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون استهزاء لفرط تعنتهم وجهلهم : متى هذا الذى توعدوننا به مبشرين ومنذرين إن كنتم أيها الرسول والمؤمنين صادقين فيما تقولون .

ونحو الآية قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » .

ثم أمر رسوله أن يجيبهم عن سؤالهم فقال :

(قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أى قل لهم أيها الرسول إن لكم ميعاد يوم هو آتيكم لا محالة ، لا تستأخرون عنه ساعة إذا جاء فتنظروا للتوبة والإنابة ولا تستقدمون قبله للعذاب ، لأن الله جعل لكم أجلا لا تعدونه .

والخلاصة — دعوا السؤال عن وقت مجىء الساعة ، فإنه كائن لا محالة ، وسلوا عن أحوال أنفسكم حين تكونون مبهوتين متحيرين من هول ما تشاهدون فهذا أليق بكم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) .

المعنى الجملى

لما ذكر الأصول الثلاثة وهى التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا ـ ذكر شأن جماعة من المشركين جاهروا بإنكار القرآن و بكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة، ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء ، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين الضالين ومضليهم من الكفار وما يسرونه من الحسرة والندامة حين يرون العذاب ، ثم أعقبه بذكر ما سيحيق بهم من الإهانة بوضع الأغلال في الأعناق ، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سيئ الأعمال ، وما دسّوا به أنفسهم من قبيح الخلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى وقال مشركو العرب : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب التى سبقته ، ولا بما اشتملت

عليه من أمور الغيب التى تتصل بالآخرة من بعث وحساب وجزاء .

روى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أنهم يجدون صفته فى كتبهم فأغضبهم ذلك وقالوا ما قالوا :

ثم ذكر ما يكون من حوار بين ضاليهم ومضليهم حين الوقوف بين يدى الملك الديان للحساب والجزاء فقال :

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول) أى ولو ترى أيها الرسول حال أولئك الكافرين وما هم فيه من مهانة وذلة ، يحاور بعضهم بعضا ويتلاومون على ما كان بينهم من سوء الأعمال والسبب فيمن أوقعهم فى هذا النكال والوبال — لرأيت العجب العاجب والمنظر المخزى الذى يستكين منه المرء خجلا .

ثم فصل ذلك الحوار فقال :

(يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) أى يقول الأتباع للذين استكبروا فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال ، لولا أنتم أيها السادة صددتمونا عن الهدى لكنا مؤمنين بما جاء به الرسول .

ثم حكى سبحانه رد الرؤساء عليهم بقوله :

(قال الذين استكبروا للذين استضعفوا:أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين) أى قال الذين استكبروا فى الدنيا وصاروا رؤساء فى الكفر والضلالة للذين استضعفوا فكانوا أتباعا لأهل الضلال منهم : أنحن منعناكم من اتباع الحق بعد أن جاءكم من عند الله ؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها بإجرامكم وإيثاركم الكفر على الإيمان .

والخلاصة — إننا لم نَحُلْ بينكم وبين الإيمان لو صممتم على الدخول فيه ، بل كنتم مجرمين ، فمنعكم إيثاركم الكفر على الإيمان من اتباع الهدى .

ثم حكى رد المستضعفين على قول المستكبرين بقوله :

(وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أى وقال الأتباع للرؤساء فى الضلال : صدنا مكركم بنا وخداعكم فى الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أمثالا وأشباها فى العبادة.

وإجمال ذلك — ما صدنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزللتمونا عن عبادة الله ، فأنتم كنتم تغروننا وتمنوننا وتخبروننا أننا على الهدى وأنا على شىء ، كل ذلك باطل وكذب .

ثم ذكر مآل أمرهم وسوء عاقبتهم فقال :

(وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى وأضمر كل من الفريقين المستكبرين والمستضعفين ـ الندم على ما فرط منهم فى الدنيا حين رأوا العذاب ، إذ هم بهتوا مما عاينوا فلم يستطيعوا أن ينطقوا ببنت شفة .

والخلاصة — إنهم ندموا على ما فرّطوا من طاعة الله فى الدنيا حين شاهدوا عذابه الذى أعده لهم .

(وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) أى وجعلنا أغلال الحديد فى أعناق هؤلاء فى النار .

ثم ذكر أنه لا جزاء لأمثالهم إلا هذا فقال :

(هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى وما يفعل ذلك بهم إلا جزاء لما اجترحوا من الكفر والآثام « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » وقد قالوا فى أمثالهم : إنك لا تجنى من الشوك العنب .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قول المشركين لرسوله لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه بعد أن طال به الأمد فى دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » ـ سلاه مما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه له وعداوتهم إياه أمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فإنه ليس بدعا من بينهم ، فما من نبى بعث فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤها كما قال : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا » ثم ذكر حجتهم بأنهم لاحاجة لهم إلى الإيمان به ، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله إياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره كما يكون للبَرّ يكون للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه فى هذه الحياة ، فمن أحسن استعمالها استفاد منها ؛ ثم ذكر أن المتقين يتمتعون إذ ذاك بغرف الجنان وهم فى أمن ودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله فى نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم وعد المنفقين فى سبيل الله بالإخلاف ، وأوعد الممسكين بالإتلاف .

الإيضاح

(وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) أى وما بعثنا إلى أهل قرية نذيرا ينذرهم بأسنا أن ينزل عليهم على معصيتهم إيانا إلا قال

كبراؤها وأولو النعمة والثروة فيها : إنا لانؤمن بما بعثتم به من التوحيد والبراءة من الآلهة والأنداد .

وليس فى ذلك من عجب ، فإن المنغمسين فى الشهوات يحملهم التكبر والتفاخر بزينة الحياة الدنيا على النفور من الكمال الروحى ، ومن تثقيف النفوس بالإيمان والحكمة ، فالضدان لايجتمعان : انغماس فى الشهوة وعلم وحكمة ، ثروة مادية وثروة روحية .

ثم ذكر تفاخرهم بما هم فيه من بسطة العيش ، وكثرة الولد وأن ذلك سيكون سبب نجاتهم من العذاب فى الآخرة بقوله :

(وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) أى وقال المستكبرون فى كل قرية أرسلنا فيها نذيرا : إنا ذوو عدد عديد من الأولاد وكثرة فى الأموال فنحن لانعذب ، لأن ذلك دليل على محبة الله لنا ، وعنايته بنا ، وأنه ما كان ليعطينا ما أعطانا ثم يعذبنا فى الآخرة .

هيهات هيهات ، إنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا ، وأخطئوا القياس « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ » .

وخلاصة آرائهم — نحن فى نعمة لاتشوبها نقمة ، وذلك دليل على كرامتنا عند الله ورضاه عنا ، إذ لو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعونا إلى تركه — مخالفا لما يرضيه — لما كنا فيما نحن فيه من نعمة و بسطة فى العيش وكثرة الأولاد .

فرد الله عليهم مقالتهم آمرا رسوله أن يبين لهم خطأهم بقوله :

(قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربى يبسط الرزق من معاش ورياش فى الدنيا لمن يشاء من خلقه ويضيق على من يشاء ، لا لمحبة فيمن بُسط له ذلك ، ولا لخير فيه ولا لزلفى استحق بها ذلك ، ولا لبغض منه لمن قُدِر عليه ولا لمقت منه له ، ولكنه يفعل ذلك لسنن وضعها

الكسب المال فى هذه الحياة ، فمن سلك سبيلها وصل إلى مايبغى . ومن أخطأها وضل لم ينل شيئا من حظوظها ؛ ولا رابطة بين الثراء ومحبة الله ، ألا ترى أنه ربما وسع سبحانه على العاصى وضيق على المطيع ، وربما عكس الأمر ، وقد يوسع على المطيع أو العاصى تارة ويضيق عليهما أخرى ـ يفعل كل ذلك على حسب ما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة التى قد نعلمها وربما خفى علينا أمرها ، ولو كان البسط دليل الإكرام والرضا لاختص به المطيع ، ولو كان التضييق دليل الإهانة لاختص به العاصى ، ومن ثم جاء قوله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما أعطى الكافر منها شيئا » .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن الله يفعل ذلك على حسب السنن التى وضعها فى الكون ، بل يظنون أن ذلك لمحبة منه لمن بسط له ، ومقت منه لمن قُدِر عليه، حتى تحير بعضهم واعترض على الله فى البسط لأناس والتضييق منه على آخرين ومن ثَمَّ قال :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصيَّر العالم النحرير زنديقا

ثم بين سبحانه لعباده أن الزلفى عنده ليست بكثرة المال والولد ، بل بالتقوى وصالح العمل ، فقال :

(وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) أى وما أموالكم التى تفتخرون بها على الناس ، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم بالتى تقربكم منا ، لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانهم وعملهم يقربانهم منى ، وأولئك أضاعف لهم ثواب أعمالهم فأجازيهم بالحسنة عشر أمثالها أو أكثر إلى سبعمائة ضعف ، وهم فى غرفات الجنات آمنون من كل خوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

روى عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها ، فقال أعرابى لمن هى ؟ قال : لمن طيَّب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » .

ثم بين حال المسىء الذى يبعده ماله وولده من الله فقال :

(والذين يسعون فى آياتنا معاجزين فأولئك فى العذاب محضرون) أى والذين يصدون عن آيات كتابنا بالطعن فيها يبتغون إبطالها ، و يريدون إطفاء أنوارها ظانين أنهم يفوتوننا وأننا لن نقدر عليهم ، فأولئك فى عذاب جهنم يوم القيامة تحضرهم الزبانية إليها ولا يجدون عنها محيصا ، ولا يجديهم نفعا ما عوّلوا عليه من شفاعة الأصنام والأوثان .

ثم زهد عباده فى الدنيا وحضهم على التقرب إليه بالإنفاق فقال :

(قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربى يوسع الرزق على من يشاء من عباده حينا و يضيقه عليه حينا آخر ، فلا تخشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتقربوا إليه بأموالكم لتنالكم نفحة من رحمته .

(وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) أى وما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم و يعوضكم بدلا منه فى الدنيا مالا وفى الآخرة بالثواب الذى كلٌّ خلف دونه ، وفى الحديث : « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا » .

وعن مجاهد أنه خصه بالآخرة إذ قال : إذا كان لأحدكم شىء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية : « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه » فإن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه .

(وهو خير الرازقين) فيرزقه من حيث لا يحتسب ولا رازق غيره .

روى الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، و يقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن حال النبى صلى الله عليه وسلم مع قومه ليس بدعا بين الرسل ، فحاله معهم كحال من تقدمهم منهم مع أقوامهم ، فكلُّهم كُذِّبوا وكلهم أوذوا فى سبيل الله ؛ ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لاصلة لها بمحبة الله ، ولا سخطه ـ أردف ذلك بما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتأنيب بسؤال الملائكة أمامهم : هل هؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ فيجيبون بأنهم كانوا يعبدون الشياطين بوسوستهم إليهم ، ثم بين أنهم فى ذلك اليوم لايقع لهم نفع ممن كانوا يرجون من الأوثان والأصنام ، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهكم : ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك : يوم نحشر العابدين منهم والمعبودين المستكبرين منهم والمستضعفين ، ثم نسأل الملائكة : أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟

وهذا سؤال وجه إلى الملائكة ظاهرا ، والمراد منه تقريع المشركين وتيئيسهم مما علقوا عليه أطماعهم من شفاعتهم لهم ، فهو وارد على نهج قولهم : إياك أعنى واسمعى ياجاره ،

وعلى نهج قوله تعالى لعيسى « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ؟ » .

وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى بُرَآء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير ، ولكن جاء ليقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون توبيخهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم .

(قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) أى قالت الملائكة : تعاليت ربنا وتقدست عن أن يكون معك إله ، نحن عبيدك نبرأ إليك من هؤلاء وأنت الذى نواليه دونهم ، فلا موالاة بيننا وبينهم .

والخلاصة — إننا براء من عبادتهم والرضا بهم .

ثم بين أنهم ما عبدوهم على الحقيقة بقوله :

(بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) أى بل هم كانوا يعبدون الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ، وأكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون ، إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم ويستغيثون بهم فى قضاء حاجتهم كما هو مشهور لدى أرباب العزائم والسحرة .

ونحو الآية قوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ » .

ولما أبطل تمسكهم بهم بعد تقريعهم وتأنيبهم زادهم أسى وحسرة فقال :

(فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) أى فاليوم لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنداد الذين ادخرتم عبادتهم لشدائدكم وكروبكم ، لأن الأمر فى ذلك اليوم لله الواحد القهار ، لا يملك أحد فيه منفعة لأحد ولا مضرة له .

(ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) أى ونقول للمشركين زجرا لهم وتأنيبا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى دنياكم ،

فهأنتم أولاء قد وردتموها وسمعتم شهيقها وزفيرها ، وليس الخبر كالخبر ، ولا السماع كالمعاينة، فعضوا بنان الندم أسى وحسرة على ما قدمتم فى دنياكم، فجنيتم صابه وعلقمه فى أخراكم .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين هم أهل النار يوم القيامة وأنه يقال لهم يومئذ : ذوقوا عذابها الذى كنتم به تكذبون ـ أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب

وهو صدهم عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم فى القرآن : إنه إفك مفترى ، و إنه سحر واضح لاشك فيه ، وقد كان فيما حلّ بالأمم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ عزيز مقتدر ، ثم أنذرهم سوء عاقبة ماهم فيه وأوصاهم بأن يشمروا لطلب الحق متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكروا ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون ، بل هو نذير لهم يخوّفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة وقد كان لهم من حاله مايرغبهم فى دعوته ، فهو لايطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، و إنما مثوبته عند ربه المطلع على كل شىء ؛ ثم أبان لهم أن الحق قد وضح وجاءت أعلام الشريعة كفلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور الحق « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

الإيضاح

(و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) أى و إذا تتلى آيات الكتاب الكريم على المشركين دالة على التوحيد و بطلان الشرك ، قالوا إن هذا الرجل يريد أن يلفتكم عن الدين الحق دين الآباء والأجداد ، ليجعلكم من أتباعه دون أن يكون له حجة على ما يدعى ، و برهان يدل على صحة ما يسلك من سبيل .

ثم زادوا إنكارهم توكيدا وأيأسوه من الطمع فى إيمانهم .

(وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) أى وقالوا إن القرآن الذى يدّعى محمد أنه وحى من عند ربه ـ كذب مختلق من عنده ، وقد نسبه إلى ربه ترويجا للدعوة واجتلابا لقلوب الكافة .

ثم شدّد مافى الإنكار فجعلوه سحرا بيّنا لاشك فيه عندهم كما حكى عنهم بقوله : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) أى وقال المشركون

لِمَا جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عند ربه مشتملا على الهدى والشرائع التى وجهتهم فى حياتهم الاجتماعية ونظم المعيشة وجهة جديدة تكون بها سعادتهم فى معاشهم ومعادهم وغيّرت الطريق التى ورثوها عن الآباء والأجداد — ما هذا إلا سحر بيّن لاخفاء فيه عندنا ، وقد أعمى أبصارنا وأضل أحلامنا فلم نستطع أن ندفعه بكل سبيل ، ولا يزال يلج القلوب ويقتحمها ويداخل النفوس ويستحوذ عليها ، ونحن فى حيرة من أمره لانجد طريقا للتغلب عليه بالوسائل التى نعرفها وهى بين أيدينا.

والخلاصة — إنهم نفوا أن يكون وحياً من عند ربه وجعلوه إما كلاما مفترى جاء به لترويج دعوته ، وإما سحرا فعله ليخْلُب به العقول ويصد الناس عن الدين الحق الذى ورثوه عن الآباء والأجداد .

فرد الله سبحانه عليهم منكرا دعواهم أن دينهم هو الدين الحق بقوله :

(وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أى إن الدين الصحيح إنما يأتى بوحى من عند الله وبكتاب ينزل على الرسول ليبلغه للناس ويبين لهم فيه ما جاء به من الشرائع والآداب والفضائل التى تكون بها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، وهم أمة أميّة لم يأتهم كتاب قبل القرآن، ولم يبعث إليهم رسول قبل محمد، فمن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذى يرشد إلى صحة الإشراك بالله ، وينفى توحيد الخالق حتى يكون لهم معذرة فيما يدّعون ، وحجة على صحة ما يعتقدون ؟ .

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم والتجهيل لهم :

ونحو الآية قوله : « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » وقوله : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ » .

وبعد أن بشر وأنذر وأبان بالحجة والبرهان ما كان فيه المقنع لهم لو كانوا يعقلون ، سلك بهم سبيل التهديد والوعيد وضرب لهم المثل بالأمم التى كانت قبلهم وسلكت سبيلهم ولم تُجْدِها الآيات والنذر ، فحل بها بأس الله وأتاها العذاب من حيث لاتحتسب فقال :

(وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) أى ولقد كان لهم فيمن قبلهم من الأمم البائدة والقرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد بلغوا من القوة والبأس ما لم يبلغوا معشاره ، فكذبوا رسلى حين أرسلوا إليهم فحل بهم النكال والوبال ودُمّروا تدميرا ، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وإنهم ليشاهدون آثارهم فى حلهم وترحالهم فى غدوّهم ورواحهم كما قال فى آية أخرى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك .

والخلاصة — إن فيما حل بمن قبلهم من المثلات نكالا لهم على تكذيبهم رسلهم — لعبرة لهم لو كانوا يعقلون .

ثم أطال لهم الحبل ومدّ لهم الباع وأنصفهم فى الخصومة فقال :

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) أى قل لهم : إن أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالتكذيب عنادا واستكبارا ، بل انتدوا وتفكروا مليا فيما دعوتكم إليه وجدّوا واجتهدوا فى طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين لعلكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل وتكونون قد أنصفتم الحقيقة وأمطتم الحجب التى غشت أبصاركم ورانت على قلوبكم فلم تجعل الحق ينفذ فيها .

وإنما طلب إليهم التفكر وهم متفرقون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا ، لأن فى الازدحام تهويش الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف ، وفيما يشاهد كل يوم من الاضطراب وتبلبل الأفكار فى الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة مايؤيد صدق هذا .

ثم أبان لهم أن نتيجة الفكر ستؤدى بهم إلى أن يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

(ما بصاحبكم من جنة) إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذى فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم لايتصدى لادّعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لايبالى بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، و إما نبى مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه .

و إنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى ؛ فوجب عليكم أن تصدقوه فى دعوته ، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفى التعبير بصاحبكم إيماء إلى أنه معروف لهم مشهور لديهم ، فهو قد نشأ بين ظهرانيهم وعلموا ماله من صفات الفضل والنُبْل وكرم الخلال مما لم يتهيأ لأحد من أترابه و لِدَاته .

و إذ قد استبان بالدليل أنه ليس بالمجنون فى كل مايقول و يدعى ، اتضح أنه صادق كما قال :

(إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) أى ماهذا الرسول بالكاذب ، بل هو نذير لكم بعقاب الله حين تقدمون عليه ، لكفركم به وعصيانكم أمره .

و إنما جعل إنذاره بين يدى العذاب ، لأن محمدا مبعوث قرب الساعة كما جاء فى الحديث « بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى » .

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «صعد النبى صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : ياصباحاه ، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا : مالك ؟ فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا بلى ، قال صلى الله عليه وسلم : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبًّا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله عز وجل : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

ولما نفى عن رسوله الجنون وأثبت له النبوة — ذكر وجها آخر يؤكد ذلك فقال :

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد) أى قل لهم : إنى لا أريد منكم أجرا ولا عطاء على أداء رسالة ربى إليكم ونصحى لكم وأمرى بعبادته ، إنما أطلب ثواب ذلك من الله ، وهو العليم بجميع الأشياء ، فيعلم صدق وخلوص نيّتى .

وإذا علم أن الذى حمله على ركوب الصعاب واقتحام الأخطار ليس أمرا دنيويا، ثبت أن الذى حفزه إلى ذلك هو أمر الله تعالى له وقد صدع به «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» وبهذا ثبت أنه نبىّ .

ولما استبان أنه ليس بالمجنون ولا هو بطالب الدنيا ـ علم أن الذى جاء به هبط إليه من السماء وقذفه الوحى إليه ، وقد أمر أن يبلغه إليهم كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) القذف الرمى بدفع شديد: أى قل لمن أنكر التوحيد ورسالة الأنبياء والبعث : إن ربى يلقى الوحى وينزله على قلب من يجتبيه من عباده ، وهو العليم بمن يصطفيهم كما قال سبحانه : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » وقال : « يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

وقد يكون المعنى كما روى عن ابن عباس : إن ربى يقذف الباطل بالحق ؛ أى يورده عليه حتى يبطله ويزيل آثاره ويشيع الحق فى الآفاق .

ولا يخفى مافى هذا من عِدَة بإظهار الإسلام ونشره بين الناس وتبلج نوره فى الكون ، ونحوه « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » .

ثم أكد ما سلف بأمره صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه بأن الإسلام سيعلو على سائر الأديان وأن غيره سيضمحل ويزول فقال :

(قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى قل جاء الاسلام ورفعت رايته وعلا ذكره ، وذهب الباطل فلم تبق منه بقية تبدى شيئا أو تعيده .

وأصله فى هلاك الحى فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء أىْ فعل أمر ابتداء، ولا إعادة أى فعله ثانيا ، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله عَبِيد فاليوم لا يُبدى ولا يُعيدُ

روى البخارى ومسلم « أنه لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم الفتح ووجد الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعُن الصنم منها بسِيَة قوسه ويقرأ : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ـ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » .

ولما سد عليهم مسالك القول ، لم يبق إلا أن يقولوا عنادا : إنه قد عرض له ما أضله عن محجة الصواب ، فأمر رسوله أن يقول لهم :

(قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى إنه سميع قريب) أى قل أيها الرسول لقومك : إن ضللت عن الهدى وسلكت غير طريق الحق فإنما ضُرّ ذلك على نفسى ، وإن استقمت على الحق فبوحى الله إلىّ وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى ، إنه سميع لما أقول وتقولون ، ويجازى كلا بما يستحق ، قريب مجيب دعوة الداعى إذا دعاه .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى قال : « إنكم لاتدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريباً مجيباً » .

والخلاصة — إن الخير كله من الله وفيما أنزله علىّ من الوحى والحق المبين .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

شرح المفردات

الفزع : انقباض ونفار من الأمر المهول المخيف ، التناوش: التناول السهل لشيء قريب ؛ يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته ، ناشه : ينوشه نوشا ، وأنشدوا لغيلان بن حُرَيث فى وصف الإبل :

فهى تنوش الحوض نوْشاً من علا نوشا به تقطع أجواز الفـــلا

يريد أنها عالية الأجسام طويلة الأعناق ، يقذفون بالغيب : أى يرجمون بالظنون التى لا علم لهم بها ، والعرب تقول لكل من تكلم بما لايستيقنه : هو يقذف بالغيب . بأشياعهم : أى أشباههم ونظرائهم فى الكفر جمع شيع وشيع جمع شيعة ؛ وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع ، مريب: أى موقع فى الريبة والظنة ، يقال أراب الرجل : أى صار ذا ريبة فهو مريب .

المعنى الجملى

بعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ـ هددهم بشديد العقاب إن هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول، وأنَّى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك فى مَكِنَتهم فى دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لايجديهم فتيلا ولا قِطْميرا من جَزَاء ما كانوا فيه من شك مريب فى الحياة الأولى ، وذلك سنة الله فى أشباههم من قبل .

الإيضاح

(ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت) أى ولو رأيت أيها الرسول هؤلاء المكذبين حين يفزعون مما رأوا من العذاب الشديد ـ لرأيت من الأمر مايعجز القول عن وصفه، فهم لا يتمكّنُون من الهرب ، ولا يفوتهم ذلك العذاب ولا يجدون ملجأ ولا مأوى يلتجئون فيه .

(وأخذوا من مكان قريب) أى وأخذوا حين الفزع من الموقف إلى النار ولم يمكّنوا أن يمعنوا فى الهرب .

(وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى وقالوا حينئذ : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأنى لهم ذلك وقد صاروا بعيدين عن قبول الإيمان ؟ إذ هذه الدار ليست أهلا لقبول التكاليف من الإيمان بالله والعمل الصالح .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » .

(وقد كفروا به من قبل) أى وكيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا الرسل ؟ .

(ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) أى وهم قد كانوا يرجمون بظنون لامستند لهم فيها ، فيتكلمون فى الرسول بمطاعن ليس لها مايؤيدها ، فتارة يقولون إنه شاعر ، وأخرى إنه كاهن ، وثالثة إنه ساحر ، إلى نحو ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والحساب والجزاء .

(وحيل بينهم وبين ما يشتهون) أى وحيل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا كما قال : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » .

ثم بين أن هذه سنة الله فى أمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلهم فقال :

(كما فعل بأشياعهم من قبل) أى فعلنا بهم كما فعلنا بالأمم الماضية التى كذبت رسلها فتمنوا حين رأوا بأس الله أن لو آمنوا ولكن لم يقبل منهم .

ثم علل عدم قبول إيمانهم ووصولهم إلى بغيتهم حينئذ بقوله :

(إنهم كانوا فى شك مريب) أى لأنهم كانوا فى الدار الأولى شاكين فيما أخبرت به الرسل من البعث والجزاء ، وقد تغلغل الشك فى قلوبهم حتى صاروا لايطمئنون إلى شىء مما جاءوا به .

ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

(١) حمد الله والثناء عليه بما هو أهله .

(٢) مقال المشركين فى إنكار البعث والرد عليهم بأنه آتٍ لاشك فيه .

(٣) الاستهزاء بالرسول وحكمهم عليه بأنه إما مفتر و إما مجنون .

(٤) النعم التى آتاها سبحانه داود وسليمان عليهما السلام .

(٥) ما كان لسبأ من النعم ثم زوالها لكفرانهم بها واتباعهم وسوسة الشيطان.

(٦) النعى على المشركين لعبادتهم الأوثان والأصنام مع بيان أنها لاتفيدهم يوم القيامة شيئا .

(٧) الحجاج والجدل بين الأتباع والمتبوعين من الكافرين يوم القيامة و إلقاء كل منهما التبعة على الآخر .

(٨) بيان أن المترفين فى كل أمة هم أعداء الرسل، لاعتزازهم بأموالهم وأولادهم، واعتقادهم أنهم ما آتاهم ربهم ذلك إلا لرضاه عنهم ثم رده سبحانه عليهم .

(٩) سؤال الملائكة أمام المشركين بأنهم هل طلبوا منهم عبادتهم ؟ ليكون فى ردهم مايكفى فى تبكيتهم .

(١٠) مقال المشركين عند سماع القرآن وادعاؤهم أنه ليس بوحى من عند الله بل الداعى مفتر ليصد الناس عن دين الآباء والأجداد .

(١١) عظتهم بما حل بمن قبلهم من الأمم .

(١٢) أمرهم بالتأمل والتدبر فى الأدلة التى أمامهم لعلهم يرعوون عن غيهم .

(١٣) إثبات أن الرسول نذير مبين ، لامفتر ولا مجنون .

(١٤) الرسول لايطلب أجرا على دعوته ، بل أجره على الله .

(١٥) طلب المشركين يوم القيامة أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول و يعملوا صالح الأعمال ، ثم الرد عليهم بأن ذلك قد فات أوانه وأن لا سبيل إلى تحقيقه .